مهنة المؤرّخ"

من منظور مارك بلوخ (Marc Bloch)

د. عزالدين زايدي

جامعة الجيلالي ليابس/سيدي بلعباس

ملخص:

يعتبر كتاب "التمجيد للتاريخ أو مهنة المؤرخ" لصاحبه "مارك بلوخ" Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien من النماذج الهامة التي ينصح التعامل معها في المجال التاريخي كونها تقرّب الباحثين و الدارسين في الحقل التاريخي من حقائق عدّة، لعلّ أبرزها المراحل التي على المؤرخ إتباعها من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية أو على الأقل التحلي بالموضوعية اللاّزمة في كتاباته التاريخية. يهتم الكتاب بالمراحل الحسّاسة التي تصقل فعلا شخصية المؤرخ و تجعل منه أحد المرجعيات الفاعلة في مختلف الحقول التي تهتم بحياة المجتمعات. و هو كتاب يعود إلى النصف الأول من القرن العشرين (1949) و يدخل ضمن السلسلة المعروفة بـ"الكتب الكلاسيكية في العلوم الاجتماعية" المؤسّسة و الموجّهة من طرف: "جون ماري ترومبلاي" Jean Marie Tremblay و التي تعمل بالتنسيق مع مكتبة جامعة "الكيبك" Québec.

Abstract :

If there are works of history, which must be read: "Apology for history or profession of historian" of Marc Bloch, is part of it. Not that it is unique or special, but it is a tool that it places in the hands of historians-researchers, and that it makes them the duty to trace to them the multiple steps that they must follow to arrive at to grasp the historical truth or at least to adorn itself with the necessary objectivity for the writing of history.This book focuses on the different stages that shape the historian's personality and make him one of the influential and effective sources in the fields that touch the lives of the people. It is a work that dates from the first half of the twentieth century, and is part of the tradition of "classics in the Social Sciences"

الكلمات المفتاحية: التاريخ/الرجال والزمن/ الملاحظة التاريخية/النقد/ التحليل التاريخي/نقل الشهادات.

مقدمة:

بدأت حكاية "المؤرخين" مع قصة "التاريخ" منذ أن عرف الإنسان كتابة التاريخ ببذله جهودا كبيرة في مجال تعريف التاريخ و توضيح حدوده و تعيين هويته و تحديد وظيفته.غير أنه في مقابل ذلك، لم يحض "المؤرخ" بنفس الاهتمام، و هو الذي أفنى كلّ عمره في كتابة هذا التاريخ البشري. إذن من هو المؤرخ ؟ و ما هي صفاته ؟ و ما هو الشيء الذي يميزه ؟-كيف يصنع المؤرخ؟ هل يصنع نفسه بنفسه؟ هل يصنعه المجتمع؟هل كلّ باحث في التاريخ هو مؤرّخ ؟ و هل المؤرّخ هو الذي يشتهر بغزارة كتاباته ومنشوراته.؟

إنها الأسئلة الكثيرة و المعقدة التي علينا طرحها للوصول إلى تحديد شخصية المؤرخ الحقيقي. ومن أجل ذلك لا بدّ من تتبّع المسار العلمي و الأكاديمي للباحث في الحقل التاريخي حتى يمكننا الإجابة على كل هده الأسئلة.من هنا تبدأ قصة "مارك بلوخ"[1] مع ا لتاريخ، الذي يحاول أن يربطه "بالإغريق" Grecs و "اللاتينية" Latin، الذين يعتبرهم الأسياد الأوائل للتاريخ الرسمي. Historiographie. و أكثر من ذلك، فهو يرى أن المسيحية، هي ديانة المؤرخين[2] .

أوّلا: أهمية التاريخ في حياة البشر

إنّ تعريف التاريخ قد لا يختلف فيه كثيرا أصحاب العلم، رغم اختلاف آراءهم التي دوما ما نجدها مدعّمة بوجهات نظرهم، حيث أصبح التاريخ مع مرور الزّمن يمثّل كمّا هائلا من الآراء و التعريفات و الاصطلاحات و الأحداث، يصعب على المؤرّخ اليوم تحديد موقفه منها[3].

يعرّف العلاّمة "ابن خلدون عبد الرحمن" التاريخ على أنّه فنّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، و الأنبياء في سيرهم و الملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن "يرومه" [4] في أحوال الدّين و الدّنيا [5]. و يرى البعض، أنه من السهل أن نعيب على التاريخ و لكنه من الصعب علينا الاستغناء عنه.حيث نجد أنفسنا نبحث عن تفسير للأحداث التي نحن شهود عليها و نريد اختبار أنفسنا حول أهداف أعمالنا و ذلك بالرجوع إلى الماضي,و لا يمكن لأي برهان أن يؤثر فينا ما دام هناك وجود لسابقة قبله[6].

أمّا "بلوخ" فيبدأ مدخل كتابه بالقول بأن هذا العمل جاء كجواب على سؤال طرحه أحد التلاميذ على أستاذه عن الفحوى من دراسة التاريخ؟ و يعتبر أن السؤال، بالرغم من بساطته أو سذاجته، يطرح بشدّة مسألة شرعية التاريخ.و معه تبدأ مهمّة المؤرخ الذي عليه أن يعرض علينا هذا التاريخ[7].

ثانيا: المؤرخ: من عصور مخاض التاريخ

وجد منذ الأزمنة الغابرة "رجال" صنعوا لأنفسهم مجدا جعل أسماؤهم تبقى مخلّدة إلى الأبد.و لم يكن شرطا أن امتهنوا "حرفة التاريخ" للوصول لهذا المجد، لأنه ببساطة لم يكونوا قد درسوا التاريخ و لا

عرفوا أنهم يؤسّسون لمهنة اسمها "مؤرّخ" علما أنهم كانوا يعرفون تارة بالفلاسفة و تارة أخرى بالأدباء و غالبا برجال علم و فنّ.

من هذا المنطلق اخترنا كتاب "التمجيد للتاريخ أو مهنة المؤرخ" لصاحبه "مارك بلوخ" [8] Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien لصاحبه "مارك بلوخ"، الذي يعتبر من النماذج الهامة التي ينصح التعامل معها في المجال التاريخي كونها تقرّب الباحثين و الدارسين في الحقل التاريخي من حقائق عدّة، لعلّ أبرزها المراحل التي على المؤرخ إتباعها من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية أو على الأقل التحلي بالموضوعية اللاّزمة في كتاباته التاريخية.

يهتم الكتاب بالمراحل الحسّاسة التي تصقل فعلا شخصية المؤرخ و تجعل منه أحد المرجعيات الفاعلة في مختلف الحقول التي تهتم بحياة المجتمعات. و هو كتاب يعود إلى النصف الأول من القرن العشرين (1949) و يدخل ضمن السلسلة المعروفة بـ"الكتب الكلاسيكية في العلوم الاجتماعية" المؤسّسة و الموجّهة من طرف: "جون ماري ترومبلاي" Jean Marie Tremblay و التي تعمل بالتنسيق مع مكتبة جامعة "الكيبك" Québec. و يتطرق صاحب الكتاب، من بدايته إلى نهايته، للأمثلة المتعلقة بالحضارة الغربية على وجه التحديد.و حسبه، يجب على "المؤرّخ" أن يحاسب.

ثالثا: التاريخ، الناس و الزمن

1 - اختيارات المؤرخ Les choix de l'historien

هل موضوعية التاريخ تفرض حياد المؤرّخ ؟ [9]. لقد بذل المؤرخون و فلاسفة التاريخ، منذ أن عرف الإنسان كتابة التاريخ، جهودا جمّة في مجال تعريف التاريخ و توضيح حدوده و تعيين هويته و وظيفته. و مع ذلك فلم يبذل جهدا مماثلا في تعريف المؤرخ نفسه، و هو صاحب كتابة التاريخ.فما هي الاستعدادات الواجب توفرها في الباحث قبل أن يصبح مؤرخا؟[10].

فالمؤرخ إذن،كما هو معرّف في القواميس، العالم الذي يدرس و يدوّن عن التاريخ. و يعتبر مرجعا في هذا العالم حيث يهتم المؤرخون بالسرد المنهجي و المتتالي و البحث في الأحداث الماضية و علاقاتها بالجنس البشري. و قد تحوّل "التأريخ" إلى مهنة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، و ذلك بتجديد معايير معينة لمن يريد احتراف المجال [11]. و أمام الحقيقة، الكبيرة و المعقّدة،يجد المؤرخ نفسه بالضرورة (حتما) يقطع بدقّة نقطة الارتكاز الخاصة بأدواته ثمّ بعد ذلك يختار ما هو أقرب إلى فكرة اختيارات "المؤرّخ".

لقد تحوّل التاريخ إلى "مهنة" مع نهاية القرن التاسع عشر و ذلك بتحديد معايير معينة لمن يريد احتراف المجال.و على المؤرّخ أن يكون محايدا بعيدا عن النزاعات السياسية و الفكرية [12]. كما عرفت العصور القديمة و الوسطى "مؤرّخا" من نوع أحر، باعتبار أنّ مدوّن التاريخ كان يعرف "بالمؤرّخ الإخباري" Le chroniqueur أو Cronista باللغة الإسبانية[13].

2- التاريخ و البشر L'Histoire et les hommes

يقول "بلوخ" أنه كم من مرة سمعنا المقولة أن "التاريخ هو علم الماضي". و هذا حكم لا نراه مناسبا على الإطلاق.لأنّ فكرة أن الماضي قد يكون مادّة لعلم ما، هي فكرة سخيفة و غير معقولة. و من المظاهر التي لا تربطنا بها سوى الفترة الزمنية، كيف يمكننا دون توضيح مسبق، أن نجعل منها مادّة علمية مطابقة للعقل أي مادة منطقية لأي دراسة تاريخية.

تعود البدايات الأولى للتاريخ الرسمي، إلى "مؤرخي الوقائع" القدامى الذين لم يهتموا بترتيب الأحداث و إعطاءها صبغة تاريخية باعتبار أنهم كانوا يخلطون في سرد هذه الأحداث التي كان القاسم المشترك الوحيد بينها هو أنها وقعت في نفس الزمان. و لعلّ هذا ما يسميه "بلوخ" : "بالجزء الأول من ذاكرة الإنسانية" التي عادة ما تكون "مبهمة" في مراحلها الأولى.و هنا يضعنا "بلوخ" في صورة الإنسان الذي هو في الأصل موضوع التاريخ[14].

3- الزمن التاريخي Le Temps historique

إذا أطلقنا على التاريخ مصطلح "علم الإنسان" أو علم البشر فذلك لا يكفي لأن الأمر غامض.فعلينا أن نضيف له ""الإنسان في الزّمن". فسنحصل على "علم الإنسان في الزّمن". لأن المؤرّخ لا يفكّر فقط كإنسان بل يجري فكره في الأجواء التي تدوم في الزمن..لأنه لا يمكننا تصور أي علم، في أي ميدان كان، أن يغض النظر عن الزمن. لكن عند البعض الأخر من العلوم فهو لا يمثل سوى نوع من القياس.و علينا أن نقول بأن "الزّمن الحقيقي" هو بطبيعته زمن متواصل باستمرار..

4- الشغوف بالأصول L'Idole des origines

ليس من السهل أن تكون البداية بالاعتراف بالذنب حتى و لو كان ذلك من رجال، جعلوا من الماضي موضوع بحثهم الرئيسي. حيث سيطرت فكرة:"تفسير الأكثر قربا بالأكثر بعدا".. **L'explication du plus proche par le plus lointain.** على دراساتهم حتى النخاع.و هذا المعشوق المنتمي "لقبيلة المؤرخين" يعرف تحت تسمية:"وسواس الأصول" أو الخوف منها..و قد أخذت نصيبها من خلال تطور "الفكر التاريخي" **La pensée historique**.

كتب رينان (Renan) [15] ذات يوم:" في كلّ الأمور المتعلقة بالبشرية، تبقى الأصول جديرة بالدّراسة.."و قد سبقه في ذلك: "سانت-بوف (Sainte-Beuve) [16] حين قال:" ألاحظ و أدوّن بكلّ فضول كلّ ما يبدأ أمامي.". فالفكرة من زمنهم، لأنه من أصول "المسيحية" جاءت أصول "فرنسا المعاصرة"، ودون الأخذ بعين الاعتبار ورثة "لإسكندر الكبير" **Alexandre le Grand**. لأن الأصول هنا: هل معناها "البدايات"؟. أو هل مفهوم الأصول هو معناه "الأسباب" فقط؟.و المثال يحدّد "بالتاريخ الديني" باعتبار أن الباحثين في مجال الأصول أمام حتمية عدم الخلط بين: النسب و العرض.

كما توجد هناك معايير أخرى لها دلالاتها. فمثلا، على المؤرخ أو الباحث أن يكون قادرا على معرفة حدود الفعلي (الحاضر) بغير الفعلي(لا حاضر) إلى جانب فهم الماضي بالحاضر.فهذه هي قدرته على إدراك ما هو حي ما يجعل منها ميزة أساسية عند المؤرخ.

رابعا: الملاحظة التاريخية و دورها في تحديد موضوعية الشهادات

ترتكز دراسة " بلوخ" في هذا الباب على ثلاثة عناصر هامة هي التي تحدّد القيمة العلمية لأي ملاحظة تاريخية علمية يقوم به "المؤرّخ".

1- السمات العامّة للملاحظة التاريخية

حسب "بلوخ"، فإن أول خطوة يعتمد عليها المؤرخ هي أن يضع نفسه في البداية في "دراسة الماضي" لأن الأحداث التي يدرسها هي في الأصل أحداث لم يلاحظها بنفسه. لأن لا أحد من العلماء المختصين في تاريخ مصر عاصر الفرعون رمسيس ، و لا أحد من المختصين في الحروب النابليونية سمع دوي مدافع أوسترليتز (Austerlitz)، و لا أحد عاصر الشعوب التي سبقتنا، و كلّ ما هو موجود لدينا منها تناقله الأشهاد. و بهذا نصبح في وضعية "قاضي التحقيق" الذي يحاول إعادة تركيب (بناء) "مسرح الجريمة" لم يكن شاهدا على حدوثها إطلاقا.

لنفرض مثلا، قائد، لجيوش حقّقت انتصارا في ميدان المعركة. باشر كتابة الوقائع على أساس انفرادي. فهو الذي رسم مخطّط المعركة و هو الذي سيّرها، و نحن بتصادمنا مع "الماضي" نلاحظ أنه فعلا كان يشاهد أمامه الجيوش تقتتل، و هذا لا نشكّ فيه.و لكن لحيثيات المعركة عليه الرجوع إلى تقارير ضبّاطه التي ستقوده في النهاية إلى إنجاز التقرير النهائي و منه يتحوّل إلى راوي للمعركة[17].

2- الشهادات

"إن الغرض من عرض "هيرودوث دي ثوروى(Hérodote de Thourioi) [18] لبحوثه كان من أجل الحفاظ على إنجازات الإنسان من الاندثار و الإبقاء على الأعمال التي حقّقها "الإغريق" Les Grecs والبرابرة (Les Barbares) راسخة في الذاكرة.." هكذا بدأ أقدم كتاب للتاريخ الذي وجد في العالم الغربي كاملا.

ولنضع مقابل هذا الكتاب مثلا: "دليل السفر"، الذي كان يضعه الفراعنة في قبور موتاهم ليكون دليلهم إلى الحياة الأخرى، فسنجد أنفسنا، وجها لوجه، أمام النماذج نفسها لمدرستين كبيرتين تتقاسم بينها الكمّ الهائل و المتنوّع للوثائق التي وضعها "الماضي" تحت تصرف "المؤرخين".فتصبح شهادات الفوج الأول إرادية volontaires أمّا الأخرى فلا.من هنا نجد بأن "المصادر الروائية" Les sources narratives قدّمت للباحثين مساعدات هامة، منها "الإطار الكرونولوجي" الذي لا يمكن لأي "مؤرخ" أن يستغني عنه.

إن الشهادات، مهما كان نوعها، فهي عبارة عن إشارات أو دلائل يتركها "الماضي" على طريق الزمن. و هي تساعدنا عندما تقلّ أو تنعدم الرّوايات أو عندما نشكّ في صحّتها. هذا ما يجنب "المؤرّخ"، كلّما قارب لدراسة الأجيال المندثرة، أن يصبح حبيس الأحكام المسبقة أو احتياطات خاطئة.

3- نقل و جمع الشهادات

تعتبر عملية جمع و نقل الشهادات من أصعب المهام التي تعترض عمل المؤرخ إذ عليه جمع الوثائق التي يراها ضرورية لعمله.غير أنه لا يمكن تحقيق ذلك دون اللجوء إلى عدّة دلائل منها: جرد للأرشيف، أو جرد للمكتبات أو البحث في فهرس المتاحف أو مختلف القواميس البيبليوغرافية.و إذا كانت "الأداة" L'Outil لا تصنع العلم، فإن المجتمعات التي تحترم نفسها عليها أن تهتم بأدوات علومها. إلاّ أن هنا، نجد "بلوخ" قد ركّز أكثر على تاريخ فرنسا [19] و تاريخ الديانة المسيحية و على الجانب العسكري الفرنسي، لإعطاء الأمثلة التي تناسب المواضيع المطروحة للدراسة التاريخية.

خامسا: النقد التاريخي

يعتبر منهج النقد التاريخي واحدا من المناهج النقدية المتعدّدة التي انبنت على قواعد متينة، هي في حدّ ذاتها نتاج لفلسفات و تيارات فكرية عرفتها الإنسانية على مرّ الأزمنة و العصور.و لعلّ ما توخاه "أفلاطون" Platon و "أرسطو" Aristote من فلسفات معينة شغلت تفكير الإنسان، هو في حدّ ذاته الملامح الأولى لهذه الفلسفات [20]. و يرى البعض، أنه إذا ضاع النقد ضاع التاريخ، ما دام أن أصل التاريخ قائم أساسا على نقد المصادر الأولية التي تبقى محلّ غربلة و تمحيص للكشف عن أدقّ التفاصيل التي تختفي وراءها.

1-نبذة عن تاريخ المنهج النقدي

إذا كانت مختلف المصالح الأمنية العالمية لا تأخذ شهادات الشهود إطلاقا، محمل الجدّ و الصدق، فإن المؤرخين فعلوا ذلك منذ زمن بعيد باعتبارهم عدم تقبّل كلّ الشهادات التاريخية دون تمحيص.و هذا الواقع فرضته التجارب القديمة التي أطلعتنا على نصوص أراد أصحابها نسبها إلى عصر دون أخر أو من مصدر ليس بالمصدر الأصلي. كما أن ليست كلّ الروايات حقيقية و يمكن للآثار المادية، هي الأخرى، أن تكون مزوّرة.

هنا أيضا، يضيف "بلوخ"، يمكننا أن نستدل بأمثلة عن القرون الوسطى عندما كانت كتابات و وثائق كثيرة محلّ شكوك كبيرة كردّ فعل طبيعي من "المؤرخين" أمام مثل هذه التصرفات.و قد كتب أحد "النبلاء" من منطقة "اللورين" La Lorraine في القرن الحادي عشر الميلادي:" أنه بقليل من المداد يمكن لأي كان أن يكتب ما يشاء.." من هنا بدأ الفكر البشري يخضع لفكرة "الشكّ" و أصبح يضع شيئا فشيئا قواعد موضوعية ليفرّق بين الحقيقة و الكذب الشيء الذي سيمكّنه من تحقيق عملية الفرز[21].

2- في ملاحقة الكذب و الخطأ

يعتبر "بلوخ"، أن أخطر السموم التي تهدّد طبيعة "الشهادات" هي الغش.الذي قد يأخذ شكلين: الأولى: متعلقة بالمؤلّف و تاريخ صدور الكتاب. و هذا يعتبر تزوير من الناحية القانونية.و يعطي مثال عن ذلك بالرسائل التي نشرت باسم "ماري أنطوانات" Marie-Antoinette و لم تكتبها أبدا. بل وجد من الرسائل من تمّ فبركته في القرن التاسع عشر. أمّا الثانية: فهي المتعلقة بالغش في صميم المسألة. والواقع، أنّ هذين المظهرين من الكذب يكشفان على جملة من المسائل مختلفة أو منفصلة عن بعضها البعض.

لكن الكشف عن الغش أصبح لا يكفي لوحده بل علينا اكتشاف الأسباب التي تتستر وراء ذلك حتى يتم تقصي الحقائق و تشخيصها.لأنه، طالما بقي القليل من الشكوك حول أصولها، فإن ذلك سيصعب من عملية إجراء تحليل علمي. و مثال على ذلك، يعتبر"بلوخ" أن أي كذبة فهي بطريقتها، بمثابة شهادة. و يصور لنا أن "الشهادة التي منحها شارل الأول الأكبر" الملقب بـ"شارلمان" Charlemagne للكنيسة في مدينة "أكس لا شابيل" Aix-la-Chapelle ليست "أصلية". هذا ما يوفر علينا الوقوع في الخطأ ولكن لا يمنحنا الحصول على المعرفة.غير أننا قد نتمكّن من تحديد مصدر "الشهادة المزورة" التي نسجت في محيط "فريدريك بربروس". Frédéric Barberousse بغرض خدمة الأحلام الإمبراطورية الكبيرة. هنا تفتح أمامنا أفاق تاريخية كبرى حول دور "النقد"، الذي عليه البحث عن المحتال الذي يختبئ وراء التضليل؟[22].

3- دراسة في منطق المنهج النقدي

يرى "المؤلّف" بأنّ مسألة "نقد الشهادات" تعمل على حقائق نفسانية، Psychiques و عليه، يعتبرها عبارة عن فنّ في الدّقة. و لا يوجد بالنسبة له أي شيء اسمه جاهز للاستعمال.و لكن في نفس الوقت يعترف أنه فنّ منطقي يرتكز على الممارسة المنهجية لبعض العمليات الكبرى التي يتحلى بها الفكر.

لنفرض أنه لم يتبقّى من حضارة قديمة إلّا شيء واحد،فسيكون من الصعب التأريخ لهذه الآثار الوحيدة و لا حتى أن نبدي رأينا حول أصالته.و لا يمكننا أبدا أن نصحّح تاريخ و إجمالا، لا يمكننا تفسير أية وثيقة إلّا إذا أدرجناها داخل نسق كرونولوجي (زمني) أو مجموعة متزامنة.

و قد تمكّن مابيلون (Mabillon) [23] من خلال مقارنته للوثائق الميروفنجية (Mérovingiens) [24] فيما بينها، من جهة، و بينها و بين نصوص و شهادات من حقبة أخرى، من تأسيس لتصرف لبق, مفاده أن تفسير الكتاب المقدّس نشأ من مقارنة الروايات الإنجيلية.وعلى هذا الأساس فإنّ كلّ نقد ينضوي على عمل المقارنة. لكن نتائج هذه المقارنة ليست ألية،بل تقودنا حتما إلى الكشف عن شبه و اختلافات. وحسب الحالات، فإن تطابق شهادة مع شهادات مجاورة قد يجرّ إلى استنتاجات مخالفة تماما..و هنا علينا تقدير، أولاّ، الحالة الأولى للرواية. و مع ذلك، إذا حلّلنا جيدا،فإن استخدام البحث التاريخي لمفهوم "المحتمل" Le Probable ليس فيه تناقضات. لأن "المؤرخ" يتساءل على الأرجح عن حدث سابق، حيث يحاول من خلاله أن

سادسا: التحليل التاريخي

1 - الحكم أو الفهم ؟.

يرى بلوخ أن القاعدة التي طرحها رانك ليوبولد [25] مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي لا زالت شهيرة : فهي تجعل "المؤرخ لا يقوم سوى بوصف الأشياء أو الأحداث كما وقعت في الماضي. .." wie es eigentlich gewesen و قد سبقه في ذلك "هيرودوت" عندما صرّح بأنّ "على المؤرخ نقل ما كان. .." ton eonta. فالمؤرخ، في كلّ الحالات، مجبر بأن يختفي أمام الوقائع. وهنا تطرح مسألتان هامتان متعلقتان أولا: بالحياد التاريخي، و ثانيا: بالتاريخ في حد ذاته كمحاولة للاستنساخ أو كمحاولة للتحليل.

2- من تنوع الأحداث البشرية إلى وحدة الضمائر

لا يعتبر فهم الأحداث من المواقف السلبية. و من أجل صناعة علم ما، لا بدّ من توفر عاملين هما: المادّة و الإنسان. و الحقيقة الإنسانية ،كما هو الحال بالنسبة لعالم الفيزياء، هي ضخمة و متشعّبة. وكأي عالم يدرك الأشياء، فإن "المؤرخ" يقوم بعملية الفرز و الاختيار.و بعبارة أخرى،فهو يحلّل الأحداث. ويعطي الأمثلة عن "تاريخ الحقوق" بين التعليم و الكتب الوجيزة، و عن "الجغرافيا البشرية" و عن "التاريخ الديني" و "التاريخ الاقتصادي"، و التي هي كلّها أمثلة تندرج في الطبيعة النوعية للحدث الإنساني.

<u>الخاتمة:</u>

إنّ أي علم مهما كان ميدانه، لا يحدّد فقط بموضوعه (أو مادّته) و لا يمكننا معرفة حدوده إلاّ إدا عرفنا طبيعة منهجه. يبقى أن نتساءل، وفق ما إذا كنّا نقترب أو نبتعد عن الوقت الحاضر،عن تقنيات التحقيق التي حتما تكون مختلفة للغاية.من هنا نطرح مسألة: الملاحظة التاريخية..و لصناعة "مؤرخ" لا بدّ من توفر الشروط الآتية: الحرية- المنهج و توفر "شخصية المؤرخ"..

إذن، فالمؤرخ ليس هو من يكتب المؤلفات الكثيرة، بل هو من يصنع التاريخ. ثمّ يبدأ في تركيب القطع، التي تمثل ما يعرف "بالحدث". Evènement. فالمؤرخ هو الذي يعرف كيف يفكّك و يركّب الأحداث التاريخية ليصنع منها التاريخ.و كم قرآنا من كتب و مؤلفات، أصحابها ليسوا بمؤرخين؟؟ بل وجدوا أنفسهم يكتبون عن التاريخ ! فهم يكتبون "السير الذاتية" و "القصص التاريخية" و "التاريخ الرسمي" بالاستناد إلى مراجع معادة و متناقلة من شخص لأخر و من جماعة إلى أخرى و من مرجع لأخر.. . وهكذا تصل إلينا القصص و يصل إلينا "شبه تاريخ".

لا نقول عنهم أنهم تطفّلوا على التاريخ، و لكن نقول بأنّ كتاباتهم كانت بعيدة عن التاريخ كعلم. لأنها ببساطة كانت تفتقد للمنهج العلمي التاريخي الذي يعدّ أساس أي دراسة تاريخية. و حتى إن وجدت عندهم مادّة علمية اسمها "تاريخ" و مستقاة من "المصادر الأرشيفية"، فهي غير موظفة علميا و منهجيا بل نجدها قد أخذت كما هي أي:" مادّة خام".لقد أعطى "مارك بلوخ" أمثلة عديدة عن كلّ دراسة قام بها ليشرح لنا مواصفات "المؤرخ". كما وضع مقارنات كثيرة و أحيانا بعض المقاربات في محاولة منه للتقريب بين ما هو متشابه..

الهوامش:

1. مارك بلوخ، من مواليد سنة 1886 بمدينة ليون (Lyon) الفرنسية. درس في جامعة "الصربون" Sorbonne و متخصص في تاريخ القرون الوصطى و أدابها. له عدّة مؤلفات من بينها: "السمات الأصلية للتاريخ الريفي الفرنسي" .Les Caractères originaux de l'histoire rurale française سنة 1931. ويعتبر مؤسس "حوليات التاريخ الإقتصادي و الاجتماعي" Les Annales d'histoire économique et Sociale، بمعية "لوسيان فيفبر" Lucien Fèbvre سنة 1929. تمّ إعدامه من طرف "الألمان" أثناء الحرب العالمية الثانية سنة 1944. ينظر:

Petit Larousse Illustré, librairie Larousse, Paris, 1984, p 1171.

2- Marc Bloch, Apologie pour l'histoire ou métier d'historien..

3. فتحية عبد الفتاح النبراوي، علم التاريخ، دراسة في مناهج البحث، المكتب الجامعي الحديث، الطبعة 1، الإسكندرية، 1993، ص 17.

4. يروم: معنى الكلمة= يبغي أي يريد.

5. عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة، الجزء 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ نشر، ص 9.

6. Louis Halphen, Introduction à l'histoire, Presses Universitaire de France, 1ére édition, Paris, 1946.(édition électronique réalisée par Pierre Palpant, Paris, p-4

7. كما يرى "لويس هالفن"،أنّ التاريخ يتعرض اليوم إلى انتقادات لاذعة حول جدوى الكتابات التاريخية بسبب الكم الهائل لكتب التاريخ الموجودة و التي قد تؤدي إلى عدم الاعتراف بالقيمة التاريخية لكتابات المؤرّخين.و هذا الموقف ليس بجديد خاصة في السنين الأخيرة حيث وصف المؤرخون "بالتجريبيين".و يعاب عليهم عدم مسايرتهم للتطورات التي حدثت في مجالات المعرفة الأخرى، كما يطلب منهم فهم و إدراك سليم للطرق المستعملة في كلّ علم يحترم. إلاّ أنه من السهل أن نعيب على التاريخ و لكن من الصعب علينا الاستغناء عنه، لأن حياتنا رغم كلّ ما فيها من مدّ و جزر، متواصلة و متتابعة إلى درجة أننا نحاول بشتى الطرق إيجاد تفسيرا للأحداث.

كما أنّ التاريخ يبحث على إنقاذ أحداث الماضي من النسيان. و قد قيل عنه أنه "ذاكرة الإنسانية". و الوصف هنا في محلّه، رغم أنّ "جمع الأحداث" لا يمثل الغاية النهائية.و يحاول التاريخ جمع كلّ ما له علاقة بحياة الشعوب التي يهتم بدراستها و هو يعمل على ضمّ و ترتيب كلّ الأحداث التي كانت الشعوب شاهدة عليها.و هو لا يهمل أي جزء و لا أي خصوصية كانت. فالأهم عنده، هو الوصول إلى معرفة كاملة للماضي.و قد نقترب من ذلك بالاعتماد على غزارة و تنوّع المصادر.

غير أنّ الذي يمكن أن يزعج "التاريخ"، هو وجود رجال ملهمين بالحداثة، لأنهم يرون فيه وسيلة روتينية تحاول عرقلة حبّهم للمغامرة. و هؤلاء من دعاة "المحاكمات النزعوية" القائلة: "بأن التاريخ سيد ردود الأفعال و عدو للتطور..". غير أن المعلوم عن التاريخ أنه يعلمنا المسيرة المستمرة إلى الأمام نحو التطور الدائم. و من هذه الاستمرارية، يحقّق التاريخ أهدافه. لأنه باستحضار الماضي يعطينا مفتاح الحاضر و ينبّهنا للمستقبل و بدون مساعدته يصبح عالمنا عبارة عم لغز. ينظر:

Louis Halphen, Introduction à l'histoire, Presses Universitaire de France, 1ére édition, Paris, 1946.(édition électronique réalisée par Pierre Palpant, Paris, pp 2-3-4-8).

8. مارك بلوخ مؤرّخ فرنسي من مواليد سنة 1886 بمدينة "ليون" Lyon متخصّص في تاريخ القرون الوسطى و آدابها و هو أستاذ بجامعة "السربون" Sorbonne. و كان من الأوائل الذين قاموا ببعث فكرة "دراسات التاريخ الشامل" Les Etudes d'histoire totale و يعتبر مؤسّس، رفقة "لوسيان فيبر" Lucien Febvre ، "لحوليات التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي" سنة 1929. Les Annales d'histoire économique et sociale. كما له مؤلّف صدر سنة 1931 بعنوان: " السّمات الأصلية للتاريخ الريفي الفرنسي" .Les Caractères originaux de l'histoire rurale Française و ثمّ إعدامه من طرف الألمان سنة 1944. ينظر:

Petit Larousse illustré, dictionnaire encyclopédique, Librairie Larousse, Paris, 1984, p 1171.

9- www.lemonde.fr/

10 . شبكة "الألوكة":. www.alukah.net

11. https://ar.wikipedia.org/wiki/

12. https://ar.wikipedia.org/wiki/

13- هو الكاتب الذي يقوم بجمع الأحداث التاريخية أو الأحداث الحالية، أي في وقتها، و ذلك بتتبّعها يوميا، و هذا الذي تكون له "عمود" في جريدة ما.كأن يكون "إخباري أدبي" أو "درامي" أو يكون "صاحب أخبار". ينظر:

Petit Larousse illustré..,op.cit.., p 202.

14. هذه الفكرة نجدها أيضا عند "لويس هالفن"، الذي يرى بأن التاريخ يبحث عن الطرق التي تمكّنه من إنقاذ أحداث الماضي من النسيان.و قد قيل عنه أنه "ذاكرة الإنسانية"، و الوصف في محله. لأن التاريخ يحاول جمع كل ما له علاقة بحياة الشعوب التي يهتم بدراستها، و هو يعمل على ضم و ترتيب كلّ الأحداث التي كانت القرون الماضية شاهدة عليها. بمعنى أحر، أنه يهتم بكل الشياء..لمزيد من المعلومات طالع:

Louis Halphen, Introduction à l'histoire.., op.cit.., p 4.

15."أرنست رينان" Ernest Renan، كاتب فرنسي ولد في بلدة "تريقي" Tréguier سنة 1823. انحرف عن انتماءه للكنيسة ليتخصّص في دراسة اللغات السامية و تاريخ الأديان. كما ساهمت أعماله في مجال التفسير في توطيد أفكاره العقلانية التي أظهرها من خلال مؤلّفاته التالية: مصير العلوم L'Avenir de la science الذي صدر سنة 1890، وتاريخ أصول المسيحية L'Histoire des origines du Christianisme خلال سنوات 1863-1881 و الذي عرف الجزء الأول منه نجاحا كبيرا بسبب تطرقه لحياة السيد المسيح (عليه السلام) .ثمّ خصّص : كتاب لحياته الدينية أسماه: ذكريات الطفولة والشباب، صدر سنة 1883 حيث خصص فيه جزءا هاما "للصلاة في القلعة"، و الذي يروي فيه الظروف التي أدّت به إلى فقدان إيمانه في الكنيسة.و نشرت له الأكاديمية الفرنسية، بعد وفاته سنة 1892، كتاب:تاريخ شعب إسرائيل L'Histoire du peuple d'Israel 1887-1894. ينظر:

Petit Larousse illustré.., op.cit.., p 1638.

16. شارل أوغستين سانت-بوف (Charles Augustin Sainte-Beuve)، كاتب فرنسي ولد سنة 1804 في بلدة بولون سير مار(Boulogne sur-Mer). كان عضوا في مجموعة "النادي الرومانسي" حيث نشر أول

مصنّف شعري له سنة 1829 بعنوان: " أشعار و أفكار "جوزيف ديلورم".. Joseph Delorme ، ثم مؤلف أخر عبارة عن رواية بعنوان: "اللّذة" Volupté سنة 1834.بعدها تفرّغ للدّراسات النقدية و التاريخ الأدبي. و أصبح منهجه بعمل على تأسيس "التاريخ الأدبي الطبيعي" من خلال دراسة مختلف "الكتّاب" في محيطهم البيولوجي و التاريخي و الاجتماعي.عضو الأكاديمية الفرنسية, توفي سنة 1869. ينظر:

Petit Larousse illustré.., op.cit.., p 1663.

17. نجد هذا الطرح عند الآخرين موسوم بـ"عرض الوقائع" نظرا لتنوع العناصر المشكلة لأي مسألة تاريخية تجعل من العرض أن يكون أكثر صعوبة. الأمر الذي يعرض المؤرخين إلى انتقادات كثيرة و اتهم منهجهم بالباطل.ينظر إلى:

Louis Halphen, Introduction à, op.cit., p 17.

18. هيرودوث دي ثوروى، مؤرخ إغريقي،ولد في بلدة "هاليكارناس" Halicarnasse عاش ما بين 484-420 ق.م.و عرف عليه أنه كان رحالة كبير. و يروي في كتاباته كلّ الأحداث التاريخية أو الأسطورية التي تروي قصص الشعوب من: برابرة و مصريين و فرس و بلاد ميديا..أمام الحضارة الإغريقية. و تبقى كتاباته من أهم المصادر لدراسة حروب القرون الوسطى. ينظر إلى:

Petit Larousse illustré.., op.cit.., p 1393.

19. يعطي مثال عن الجزء الأول لكتاب "أصول تاريخ فرنسا" لصاحبه "إيميل موليني" Emile Molinier الذي صدر سنة 1901 و لم يعاد طبعه. و هنا يطرح الأداة و العلم و العلاقة بينهما.

20. لقد أثار "سانت-بوف" هذه الأفكار خاصة فيما يخصّ أعماله المتمحورة حول "الدراسات النقدية" و "التاريخ الأدبي".ينظر إلى:

www.nizwa.com

21. بالرجوع إلى المنهج التاريخي، نجد أن انبثاق هذا التفكير واضح فيه، من خلال معيارية النقد الذي يتضمّنه باعتباره معنيا بحركة الزّمان و ما فيه من أيديولوجيات واقعية تشقّ فلسفتها من الواقع الذي، بدوره، يلتقي مع رؤى أخرى.و هنا، لا بدّ أن نشير إلى معطيات تخصّ الدّراسات المتضمنة: "رصد حركات التطور من خلال الوقوف على الجذور الأولى للنقد التاريخي."و ذلك عبر شهوده الأوائل، و مدى تأثره "بالمنهج التاريخي الطبيعي" الذي عزّزته أراء كلّ من: "سانت-بوف" و "تين" و "برونتير". بالإضافة إلى أنماطه و أسسه و مميزاته. ثمّ محاولة اكتشافه تطبيقيا في نموذج مختار وقع على كتاب: "طه حسين" Taha Hussein حول تجديد ذكرى "أبي العلاء المعري" و مناقشته نظريا في نموذج: "كوسي عوض". ينظر: محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ط 3،دار النهضة، القاهرة، مصر، 1977، ص 48.

22. غير أن البعض يعتبر بأن الكتابة اليوم عن النقد التاريخي، في هذه الفترة التي تطورت فيها مناهج النقد، تراجع إلى الوراء في مجال البحث النقدي. غير أنه ينبغي التمييز بين الدعوة إلى استمرار التصورات القديمة، و بين العزم على إعادة النظر في واقع النقد التاريخي العربي و الغربي على حدّ سواء. ينظر: حميد لحمداني، رؤية جديدة للنقد التاريخي في الأدب- من دائرة التاريخ إلى دائرة السيميولوجيا:

https://www.aljabriabed.net/n28.

23. هو "جون مابلون"، ولد في "سان بيرمون" Saint-Pierremont سنة 1632م. من الرهبان الفرنسيين التابعين لجمعية "سان مور" Saint-Maur في باريس. تدين له الكنيسة المسيحية بمؤلّفه : Acta sanctorum ordinis benedicti وكذلك كتابه: De re diplomatica الذي أسس من خلاله "للدبلوماسية"، توفي سنة 1707. ينظر:

Petit Larousse illustré.., op.cit.., p.41.

24. تسمية أطلقت على أول سلالة لملوك الإفرنج الأوائل. و لم تظهر في الكتابات التاريخية إلاّ مع "شلوديون" Chlodion ملك "كمبرال" Cambral في حدود سنة 460م. ثمّ بعده "شلدريك الأول" Childeric 1er ملك "تورنال" tournal و الذي يعتقد أنه ليس من أبناء "شلوديون". غير أن "كلوفيس الأول" Clovis 1er هو المؤسّس الحقيقي للسلالة الميروفنجية سنة 511م. أما أخر ملوكهم فهو "شلدريك الثالث" Childeric III الذي نصّب ملكا سنة 743م. و في سنة 751م، تم وضعه سجين في أحد المعابد من طرف "بيبان لو براف" Pepin le Bref مؤسّس الأسرة الملكية الحاكمة و هي الأسرة "الكارولنجية". Les Carolingiens.

25. هو فون ليوبولد رانك (Leopold von Ranke)، مؤرخ ألماني ولد سنة 1795م في بلدة "فياه" Wiehe. من أهمّ مؤلّفاته:" البابوات الرومان" الذي ألفه ما بين سنوات 1834م-1836م. و "تاريخ ألمانيا خلال عهد الإصلاح" الذي ألفه ما بين 1839-1847. كما يعتبر من واضعي "علم التاريخ الألماني" خلال القرن التاسع عشر. توفي سنة 1886.